﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: 9 - 17]

❁ مناسبة الآيات لِما قبلَها:

الانتقالُ مِنَ الوعيد بالزّمن القادم إلى الإنذار بما نزل بالأمم السّابقة

لَمّا ذَكرَتِ الآياتُ السّابقة المُقدِّماتِ الدّالّةَ على اقتراب القيامة، وأشراطِ السّاعة، وما يكون من أهوالها، وبعثِ النّاس من قبورهم، وما صدر عنِ الكافرين مِنَ العِناد بعدَ أن أَتتهم الأنباءُ الزّاجرةُ، فآثَروا الكفرَ على الإيمان؛ ناسبَ الانتقالُ إلى بيان مَصير السّابقين، وما حلَّ بهم مِنَ العذاب الأليم في الدّنيا، زيادةً في تنبيه المُخاطَبين، وإيثارًا للتّرهيب على إنزال العقاب المَهيب، فبدأ بذِكر قوم نوح ﷺ، وما نَزلَ بهم مِنَ العقوبة الماحِقة المُغرِقة؛ ليكونَ لِلمُشركين عِبرةً وآيةً.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾: أصل (زجر) يدلُّ على الانتهار[1]. ومنه الزَّجرُ: طَردٌ بصَوتٍ، يُقالُ: زَجَرْتُهُ فانْزَجَرَ[2]، وحقيقته المَنعُ والتَّخويفُ، وصيغة الافتعال ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمُبالغة في زجره وإيذائه ﷺ[3]. والمراد هنا: انتَهَروهُ بالسَّبِّ وغَيرِه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (زجر).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 102.
(4) الجلالان، تفسير الجلالين، ص: 705.

2) ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾: أصلُ (همر) يدُلُّ على صَبٍّ وانصباب[1]. ومنه الهَمرُ: صَبُّ الدَّمع والماءِ والمَطَرِ، وهَمَر الماءُ وانهمر، فهو هامِرٌ مُنهَمِرٌ. والفَرَسُ يَهمِرُ الأرضَ هَمْرًا، وهو شِدَّة حَفرِه الأرضَ بحوافِرِه[2]، ومعنى المُنهَمِر: المُنصَبُّ؛ أي: المصبوبُ على الأرض بقوَّةٍ وبكَثرةٍ وتتابعٍ[3].

3) ﴿قُدِرَ﴾: أصل (قدر) يدلُّ على مَبلَغِ الشّيءِ وكُنهِه ونِهايَتِه[4]. فالقَدْرُ: مَبلَغُ الشَّيءِ ونهايَتُهُ، يُقال: قَدْرُهُ كذا؛ أي: نِهايَتُهُ. ويأتي بمعنى التَّقدير، وهو: بَيانُ كَمّيَّةِ الشَّيءِ، يُقال: قَدَرَ الشَّيءَ بالشَّيءِ، يَقدُرُه، قَدْرًا، وقَدَّرَه؛ أي: قاسَهُ وبَيَّنَ مِقدارَهُ[5]. ووَصفُ الأمرِ في الآية بأنَّه قَد قُدِرَ، مُرادٌ به الإتقانُ والإحكامُ بمِقدارٍ، يُقالُ: قَدَرَهُ بالتَّخفيفِ إذا ضبطَه وعيَّنَه[6]. ومعناه في الآية: قُضيَ به في الأزَل، وهوَ هَلاكُهم غَرَقًا[7].

4) ﴿أَلْوَاحٍ﴾: (لوح) أصلٌ صحيحٌ، مُعظَمُه مُقاربةُ بابِ اللَّمعان. ومِنَ الباب: اللَّوحُ: كلُّ صَفيحةٍ عَريضَةٍ مِن صفائحِ الخَشَبِ؛ واللَّوحُ: الَّذي يُكتَبُ فيه[8]؛ وسُمّي لَوحًا لأنّه يَلوح. ومِنَ الباب: اللّوح بالضَّمّ، وهو الهواء بينَ السَّماء والأرض[9]. وألواحُ الجَسَدِ: عِظامُه ما خَلا قَصَبَ اليَدَينِ والرِّجلَين، ويُقالُ: بَلِ الألواحُ مِنَ الجَسَدِ كلُّ عَظْمٍ فيه عِرَضٌ[10]. والألواحُ جَمعُ لَوحٍ، وفي الآية: القِطعةُ المُسوّاةُ مِنَ الخَشَبِ[11].

5) ﴿وَدُسُرٍ﴾: أصل (دسر) يَدُلُّ على دَفْعٍ شَديدٍ، يُقالُ: دَسَرْتُ الشّيءَ دَسْرًا، إذا دَفَعتَه دَفْعًا شديدًا، ودَسَره بالرُّمح مثله. والدِّسارُ خَيطٌ من ليف تُشَدُّ به ألواحُ السَّفينةِ، والمَساميرُ أيضًا تُسَمَّى دُسُرًا في أمر السَّفينة؛ لأنَّ المِسمارَ يُدفَعُ أبَدًا حتّى يَستَوي[12]، واحدها دِسارٌ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (همر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (همر).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 102.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قدر).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 183 - 184.
(7) السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين، ص: 705.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (لوح).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوح).
(10) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (لوح).
(11) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 184.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دسر)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 214.
(13) الرّجز في الدّيوان، ص: 16، والخليل، العين: (دسر).

7) ﴿مُّدَّكِرٍ﴾: أصل (ذكر) يدلُّ على حِفظٍ تَذكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ[1]. فالذِّكرُ ما ذَكَرتَهُ بلِسانِكَ وأظهرتَهُ. والذُّكرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلبِ. يُقالُ: ما زالَ مِنّي على ذُكْرٍ؛ أي: لَم أنسَه[2]. ومُدَّكِرٍ أصلُه: مُذْتَكِرٌ (مُفْتَعِلٌ) مِنَ الذُّكرِ بضمِّ الذّال، وهو التَّفَكُّرُ في الدَّليلِ، فقُلِبَت تاءُ الافتِعالِ دالًا لِتقارُبِ مَخرَجيهما، وأُدغِمَ الذّالُ في الدّالِ لذلك[3]. والمراد هنا: أي: مُتَذَكِّرٍ مُتَّعِظٍ، مُعْتَبِرٍ، خائِفٍ[4].

❁ المعنى الإجماليّ:

الجُحودُ والإنكارُ سُنّةُ قومِ نوحٍ لمَن بعدَهم، والطّوفان إنذارٌ لمَنْ لَحِقَهم

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمةُ قصّةَ قومِ نوح ﷺ؛ بغَرَضِ الإنذار والتّخويف والتّهديد، فيُذَكِّر أنّ هؤلاء المُكذِّبين لم يكونوا أوّلَ مَن كذَّبَ، بل سبقَهم قومُ نوح، وهم أوّل أمّةٍ بُعِثَ إليها رسولٌ يدعوهم إلى التّوحيد، فكذَّبوه واتَّهموه بالجُنون، وتمادَوا في الإساءة إليه قولًا وفعلًا حتّى ضاق بهم، فدعا ربَّه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾، فاستجاب اللّهُ دعاءَه، وأرسل الطّوفان، ففُتِحَت أبوابُ السّماء بمطرٍ شديدٍ، وفَجَّرَتِ الأرضُ عيونَها، فالتقى الماءُ من فوق ومن تحت، تنفيذًا لأمرٍ قدَّرَه اللّهُ منذ الأزل. ونجّى اللّه نوحًا والمؤمنين معه في سفينةٍ مَصنوعةٍ من ألواحٍ ومَساميرَ، تجري مَحفوظةً بعين اللّه، وكانَت نجاتُهم جزاءً لصبر نوح وتكذيبِ قومِه له. وقد أبقى اللّهُ خبرَ الطّوفان آيةً باقيةً للعِظَة والاعتبار، يدعو بها كلُّ قلب حيٍّ إلى التَّدبُّر، ثمّ أعقب ذلك بالاستفهام التّحفيزيّ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ أي: هل مِن مُعتَبر بهذه العِبرة الجليّة؟ وتكرَّرَ السّؤالُ مع

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(2) أبو عمرو الشّيباني، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 187.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 7/ 429.

تقرير نعمةِ الله في تيسير القرآن للحفظ والتَّذكُّر، فمَن لم يَتَّعظ بعدَ كلِّ هذه الآيات فبِمَ يتَّعظ[1]؟.

❁ الإيضاح اللّغويّ والبلاغيّ:

بلاغة الاستئناف البيانيّ وفائدتُه:

قوله تعالى: ﴿* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ[2] يُجيب عن سؤالٍ مُقدَّر في ذهن السّامع، يُثيرُه السّياقُ السّابق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ فكأنّ سائلًا قد سأل بعد مَعرفةِ تكذيبهم وإعراضهم واتّباعهم لأهوائهم: هل كانوا وحدَهم في ذلك التّكذيب، أم كان لهم سلفٌ في المَسلَكِ والعقوبة؟ فأُجيبَ: ﴿* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ بأسلوبٍ يُنبّه ويُهيّئ للاتّعاظ؛ ليُقالَ: ما هم بأوّل مَن كذّب، ولكن مَن كذّب قبلَهم أُخِذ بالعذاب، فلْيَتّعِظ هؤلاء.

التّكذيب والإنكار سُنّةٌ في الأمم، يُنجّي اللهُ منها عبادَه المتّقين

وفائدةُ هذا الاستئناف رسمُ اتّصالِ السُّنن في الأمم، ببيان أنّ التّكذيبَ سنّةٌ قديمةٌ، وعقوبتُه كذلك. مع إثارة الخوف في نفوس المُكذِّبين من مصير مَن قبلهم، وإقامةِ الحُجّة عليهم بأنّهم ليسوا أوّلَ مَن بُلِّغ، ولا أوّلَ مَن كُذِّب، بما ينفي العُذرَ عنهم. وهذا الاستئنافُ البيانيُّ تمهيدٌ قَصَصيٌّ بديعٌ، يهيّئ السّامعَ لِما بعدَه من مضمون قصّة نوحٍ على جهة الإجمال، في مَشهَدٍ وجيز بالغِ التّركيز.

نُكْتَةُ تأنيثِ الفعل وتذكيرِ الفاعل:

التّأنيثُ إيماءٌ إلى معنى الاجتماع على الباطل، والتّذكيرُ تصريحٌ بالقيام على التّكذيب

آثر النّظمُ الكريم تأنيثَ فعلِ التّكذيب مع تذكير الفاعل في قوله تعالى: ﴿* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ على تأويل القوم بالجماعة، لاستحضار معنى الجماعة المُتوافِقة على الباطل والمُجتمِعة عليه، وفي لفظ ﴿قَوْمُ﴾ استحضارُ معنى القوّة والعزيمة الّتي تضمَن لهذا الاجتماع ألّا يهونَ ولا ينخرِم.

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 179.

دلالةُ تضعيف فعل ﴿كَذَّبَتْ﴾:

ضُعِّف فعل ﴿كَذَّبَتْ﴾ للتّعدية؛ أي: نسبوا غيرَهم إلى الكذب[1]، فهم يقومون بتكذيب الآخرين الصّادقين بقوّة القوميّة الّتي تجمعُهم، وشدّة الباطل الّتي تقوم بهم.

قيامهم بتكذيب الآخـريـن الصّادقين بقوّة القوميّة الّتي تجمعُهم

فنُّ التّغليب:

آثر النّظمُ الكريم إسنادَ فعلِ التّكذيب إلى قوم نوح في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ دون بعضهم للتّغليب، فما آمنَ به إلّا قليلٌ[2]، فغلَّبَ الأكثر على الأقلّ.

نُسِبَ التّكذيب لبعضهم دونَ بعضٍ للتّغليب

توجيهُ مُتشابهِ إسقاطِ الجارّ:

أُسقِط الجارّ قبل الظّرف في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فلم يقُل: (من قبلهم)، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التّوبة: 70]، لأنّ السّياق في بيان أمر التّولّي عن المُشركين، فناسبَ أن يَذكُرَ القبليّة المُطلَقة غيرَ المُقيّدةِ بكون التّكذيب كان ابتداءً من قبلهم، بل هو قبلَهم قبليَّةً مُطلَقة، لأنَّ المقصودَ بيانُ سُنَنيّة الأمر، بخلاف ذِكر (من)؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّ الأنباءَ كانت من قبل المُشركين؛ ليقعَ التَّذكُّرُ والتَّفكُّرُ بما حصل للسّابقين ابتداءً مِنَ الزّمن الّذي قبلَهم مباشرةً، فيقع الاتّصال بالماضي كلّه؛ لأنّ المطلوبَ هو التَّفكُّرُ لا الإنذارُ المُطلَقُ.

الإنـذار المُطلَق المَسبوق بالتّولّي تُناسبُه القبليّة المُطلَقة

فائدة ذِكر الظّرف مُقدَّمًا:

آثر النّظمُ الكريم ذكرَ الظّرفِ ﴿قَبْلَهُمْ﴾ مُقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ للتّشويق للمُؤخَّر، وللعنايةِ بتوجيه

معرفة تاريخ الأمم السّابقة يُهوِّن شأنَ المُعاصِرين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 180.

الأفهام لقبليّة حصولِ التّكذيب؛ وذلك أنّ الآياتِ أرادَت إظهارَ سنّةِ الأمم السّابقة في تلقّي الهِداية، وأنّها قامَت على التّكذيب في مُجمَلها، فكان إظهارُ القبليّة مع تقديمها بيانًا في كون ما سيأتي ذكرُهُ هو سُنّةٌ اجتماعيّةٌ اتّبعتها الأممُ السّالفة، وأنّ المُشركين ليسوا بدَعًا مِنَ الأمم، ففيه تهوينٌ لِما قام به المُشركون، وأنّه أمرٌ ليس ذا بالٍ، ولا يستحقُّ الالتفاتَ، فإمّا الاهتداء، وإمّا نزول البلاء.

دلالة تعريف ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ بالإضافة لا بالعَلميّة:

المَعارفُ البشريّة مرعيَّةٌ في الخبر القرآنيّ عنِ الوقائع التّاريخيّة

جاء تعريف ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ بالإضافة إلى اسم رسولِهم لا إلى اسم قبيلتهم؛ كعادٍ وثمودَ؛ وذلك أنّهم مُحقوا فلم يبقَ في الأرض مَن يحفظ اسمَهم إلّا بإضافتهم إلى رسولهم، بخلاف عادٍ وثمودَ فإنّهم عُرفوا عند العرب بأسماء قبائلهم، وتناقلَها العَربُ فيما بينهم، كما أنّ الإضافةَ تجعل الفاعلَ مُحدَّدًا ومَعروفًا لدى السّامع، فتَبرُزُ الخصوصيّةَ التّاريخيّة والجماعيّة لهؤلاء الكافرين السّابقين[1].

بلاغة جناس الاشتقاق:

استمرارُ تكذيب البشر للرّسل عبرَ الأجيال يتجلّى بجناس الاشتقاق

في قوله تعالى: ﴿*كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ الكلمتان ﴿*كَذَّبَتْ﴾ و﴿فَكَذَّبُواْ﴾ مُتشابِهتان اشتقاقيًّا مِنَ الجذر (كذب)، فيكون هنا جناسٌ اشتقاقيٌّ؛ لأنّه يكرِّرُ الجذرَ مع اختلاف الصّيغة الزّمنيّة، فيُبرزُ استمراريّةَ الكذبِ والتّكذيب عبرَ الأجيال.

بلاغة إدخال الفاء على فعل التّكذيب الثّاني:

التّكذيب الإجماليُّ إيماءٌ إلى العقوبة، والتّفصيليُّ بيانٌ لأسبابها وتاريخها

آثر النّظمُ الكريم تَكرارَ فعلِ التّكذيب في قوله تعالى: ﴿*كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾؛ وذلك لتفريع التّكذيب الثّاني على الأوّل، فالتّكذيبُ الأوّل هو الوصف العامّ الإجماليّ لهم بما كان سببًا في إهلاكهم، والتّكذيبُ الثّاني المُفرّع عليه هو تفصيلٌ للمُجمَل،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 180.

فبدأ بالتّكذيب الأوّل الّذي هو عبارةٌ عنِ النّتيجة الكلّيّة الّتي أوصلَتهم إلى الغَرق في الطّوفان، ثمّ شرع في بيان ذلك تفصيلًا، وتكون الفاءُ تفريعيّةً. ويحتمل أن يكونَ التّكذيبُ الأوّلُ عامًّا، على احتمال أن يكون تكذيبُ قومِ نوح لرُسلٍ كثيرين قبلَ نوحٍ ﷺ، ثمّ كان التّكذيبُ الأخيرُ لنوحٍ هو الماحِقُ، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشّعراء: 105]، فيكون الأوّلُ عامًّا، والثّاني خاصًّا بنوحٍ ﷺ، فتكون الفاءُ من عطف الخاصِّ على العامِّ، وهو قريبٌ من توجيه الأوّل. فالتّكرار للتّأسيس، كأنّه قيل: كان مَذهَبُهُمُ التّكذيبَ للرّسالات، فكذَّبوا عبدَنا[1]. وفي إعادة التّكذيب التّنبيهُ على أنّ تكذيبَهم الأوّلَ لم يكُن بحقٍّ، فكان قولُه: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ تفريعًا بتصديق المُكَذَّب، ودحضًا لهم، كأنّه قيل: كذَّبَت قومُ نوحٍ، وكان تكذيبُهم تكذيبًا لعبدِنا؛ أي: لم يكُن تكذيبًا بحقٍّ! كما يقول القائل: كَذَّبَني فكذَّبَ صادقًا[2].

دلالة إيثارِ لفظِ العبوديّة على الرّسالة:

آثرَ النّظمُ الكريم الإخبارَ عن نوحٍ ﷺ بعنوان العبوديّة المُضاف إلى ذاته العَليّة في قوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾، دون التّعبير بالرّسالة أو النّبوّة؛ فلم يقُل: (فكذّبوا رسولَنا)؛ لأنّ المقصودَ تشريفُ نوحٍ ﷺ بكونه عبدًا لله تعالى، فهو عبدٌ لله قبل أن يكون رسولًا، وبيانُ أنّه ليس له مِنَ الأمر شيءٌ إلّا إرادةُ سيّده؛ لأنّه عبدٌ، والعبدُ محدودٌ بحَدِّ سيِّده وتكليفه. والعبدُ أبعدُ عن تحريف كلامِ سيّده[3]، كما أنَّ التّعبير بـ ﴿عَبْدَنَا﴾ بدلًا من اسمه ﷺ، غيَّرَ وجهَ القصّة، فجعلَها قضيّةً بين الله وأعدائه، لا بين بشر وبشر.

العبوديّة هي الوصف الأشمل والأشرف في مقام الانتصار للحقّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.

نوع الإضافة ودلالتُها:

أُضيف لفظُ (عبد) إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا﴾، والإضافةُ بمعنى اللّام فأفادَتِ الاختصاصَ؛ أي: هو عبدٌ لنا لا لغيرنا، ولازمُ الاختصاص التّشريف.

الإضافة لـلاختصاص، ولازم الاختصاص التّشريف

بلاغة عطف جُمَلِ الاتّهام:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ﴾ على قوله: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾؛ للدّلالة على أنّهم لم يقتصروا على مُجرَّد التّكذيب، بل نسبوه إلى الجُنون[1]. ففي العطف بهذه الجملة بيانٌ لمزيدِ قُبحِ صُنعِهم، حيثُ لم يَكتفوا بقولهم: (إنّه كاذِبٌ)، بل قالوا: ﴿مَجْنُونٌ﴾؛ أي: يقول ما لا يقبَلُهُ عاقلٌ، والكاذبُ العاقلُ يقول ما يظَنُّ به أنّه صادقٌ، فقالوا: ﴿مَجْنُونٌ﴾؛ أي: يقول ما لم يَقُل به عاقلٌ، فبيَّن بذلك مبالغتَهم في التّكذيب[2]، ودلَّ العطف على التّناقُض في مَوقِفهم، فإنَّ ما يَصدُر عنِ المجنون ليس بكذبٍ؛ لأنّه ليس نتاجَ العقل، فكيف يوصَف الإنسانُ بالكذب والجُنون في آنٍ؟ فهذا منِ اضطرابهم وتناقضهم، أو من تباين مَوقِفهم واختلافهم فيما بينهم.

المُكذِّبون مُتناقِضون في أقوالِهم بسببِ غيابِ الحقِّ عن قلوبِهم

غرضُ تنكير لفظ ﴿مَجْنُونٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿مَجْنُونٌ﴾ للتّهوين من شأن نوحٍ عليه السلام، وقَدح أهليَّته، فكأنَّهم قالوا: ما هو إلّا مَجنون، فاتّهامهم له بالجنون كنايةٌ عن عدم إيمانهم به.

التّهوين من شأن نوحٍ عليه السلام، والقدح بأهليّته

دلالة بناء فعل (ازدُجر) للمَفعول:

بُنِيَ فعلُ ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ للمفعول للعِلم بالفاعل، فسُلِّط الفعلُ على الحَدَث والمفعولُ لبيان صبر نوحٍ عليه السلام على قومه، وأنّه وجد منهم شدّةً وغِلظةً وتهكُّمًا، ففيه تسليةٌ للنّبيّ ﷺ بذِكرِ مَن تقدَّمه، فقال:

تنوّعُ احتمال الفاعل وكثافةُ التُّهم الموجَّهة لرسل الله تسليةٌ لِمَن بعدهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.

﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾؛ أي: فعلوا ما يوجِب الانزجار من دعائهم حتّى تركَ دعوتَهم، وعدلَ عنِ الدّعاء إلى الإيمان إلى الدّعاء عليهم. ولو قال: (زجروه) ما كان يفيد أنّه تأذّى منهم؛ لأنّ في السّعةِ يُقال: (آذَوْني، ولكن ما تأذَّيت)، وأمّا (أوذيتُ) بالبناء للمفعول فهو قطعٌ بالأذيّة وتحقيقٌ بوقوعها. ويحتمل أن يكون بناءُ قولِه تعالى: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمفعولِ حكايةَ قولهم؛ أي: هم قالوا: (ازدُجِر)، تقديره: (قالوا: مَجنونٌ مُزدَجَرٌ)، ومعناه: ازدَجَرَهُ الجِنُّ، أو قالوا: (جُنَّ وازدُجِرَ)، فكأنّ الزّجرَ لم يقع مِن قِبَلِهِم كما الجُنون. والأوّل أظهرُ، وهو أنّهم هم الّذين ازدَجَروه؛ كما هم الّذين بَهَتوهُ بالجُنون[1].

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ تفريع على قوله: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، وما تفرَّعَ عليه مِن تقوُّلِهم عليه، وازدجارِهم له[2].

فائدة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة:

تعليم العباد أنَّ مُقتضَى الرّبوبيّة نُصرةُ الأولياء والانتقامُ مِنَ الأعداء

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾؛ لبيان أنَّ المَغلوبَ إنّما يُنادي صاحبَ العظَمة والمَلكوت، المُربّي والمُصلِح لجميع أحواله، والنّاصرُ لأوليائه، ففيه تعليمٌ للعباد استحضارَ معاني الرّبوبيّة، وقد أُخِذ أنّ نوحًا عليه السلام دعا ربَّه؛ لأنَّ اللّه قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾، فهو إخبار عمّا حصل، وفيه إرشادٌ وتعليمٌ أنَّ الرّبَّ المُعينَ النّاصرَ هو المُنتقِمُ مِنَ المُجرمين.

غرضُ إضافةِ لفظِ الرّبوبيّة إلى الضّمير:

تشريفُ نوحٍ عليه السلام، ورضا اللهِ عليه

أُضيفَ لفظُ الرّبوبيّة إلى الضّمير ﴿رَبَّهُۥٓ﴾؛ لتشريف نوحٍ عليه السلام، والإيماء إلى رضا اللّه تعالى على عبدِه، فهو الّذي أضافه سبحانه إلى نعت الرّبوبيّة.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 295.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.

لطيفة حذفِ حرف الباء:

الدّعاء بالحال الكاشِفةِ عن صاحبها سببُ نصرةِ المَغلوبين

آثَر النَّظمُ الكريم حذفَ الباءِ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾؛ أي: دعا بأنّي مَغلوبٌ؛ أي: بمَضمونِ هذا الكلامِ في لُغَتِه[1]، فنوحٌ عليه السلام لم يتكلَّم العربيّةَ، والمَذكور يدلُّ على كلامه، فحَكَتِ الآيةُ دعاءَه، وليكونَ فعلُ الدّعاءِ مُتَّصلًا بحالِ الغَلَبَة، فجعل الغَلبةَ كأنّها نفْسُ المَدعوّ به، لا واسطةَ بينها وبين الدّعاء، فكأنّ نوحًا عليه السلام ما دعا إلّا بأنْ ألقى حالَه مباشرةً بين يدي اللّهِ، من غير أن يتكلَّفَ بذِكر وسائط؛ أي: ألقى بنفسه المَغلوبةِ بين يدي ربِّه مُستغيثًا، بدون تعبيرات فاصلةٍ أو ألفاظٍ متوسطة.

غرضُ تنكير لفظ ﴿مَغْلُوبٌ﴾:

تهويل الحال وكمالُ الوصف بالغَلبة

تنكير لفظِ ﴿مَغْلُوبٌ﴾ أفاد كمالَ الوصف بالغلبة، كأنّه يقول: يا ربّ إنّي غارقٌ في الغلبَة، فلا يُنجي إلّا نصرُك، فهو لتهويل الحال.

بلاغة الاستعارة المَكنيّة:

التّصريح بالغَلبةِ توطئة لطلب النّصر

في قول نوحٍ عليه السلام: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شبَّهَ يأسَهُ من إجابتهم لدعوته بحالِ الّذي قاتل أو صارع فغَلَبَهُ مُقاتِلُهُ[2]، وذكرَ لازمَ القتال وهو لفظ ﴿مَغْلُوبٌ﴾، حيثُ أطلقَ صفةَ الغلَبَةِ، وهي صفةٌ تُستعمَل عادةً في الصِّراع البدنيِّ أو القتال على حالة يأسِه من إيمان قومه، وفائدةُ التّعبير بالغلبة التّوطِئةُ لطلب النّصر.

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ لتفريع طلب النّصر على التّصريح بالغَلبة، وهذا من أدب الدُّعاء وفقهه مع الله تعالى.

غرض الأمر ودلالتُه:

لا يملِكُ العبدُ الضّعيفُ لنفسه إلّا الدّعاء

جاء التّعبير بصيغة الأمر ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.

أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ مَجازًا عن طلب إظهارِ الغَلبة؛ أي: إيقاع النّصر له على مَن غَلَبَه، فهو استعارةٌ للأخذ بالثّأر والانتقام مِنَ الظّالمين، وللدّلالة على شدّة حاجته وسرعةِ رجائه، كما يجوز حَملُ صيغةِ الأمر هنا على المَجاز المُرسَلِ، حيثُ استَعملَ صيغةَ الأمر، وقصدَ التَّضرُّعَ والدّعاءَ.

بلاغةُ إطلاقِ فعلِ ﴿فَٱنتَصِرْ﴾:

طـلـبُ الـنّـصـر للحقِّ لا للذّات في نداء الأنبياء

أطلقَ فعلَ ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ دونَ تقييد، فلم يقُل: (فانصرني)، أو (فانتصرْ لي)؛ وذلك للإيجاز ومراعاةِ الفاصلة[1]، ولأنَّ مقصودَه نصرةُ اللّهِ لدعوته ولدينه، لا مُجرَّدَ نصرِه الشَّخصيّ. فهو لا يطلُبُ مُجرَّدَ الخلاصِ الفرديّ، بل يَطلبُ انتقامَ الحقّ، وإظهارَ العدلِ الإلهيِّ بإهلاك المُكذِّبين الظّالمين.

نوع الفاء ودلالتُها:

دعـاء الأنبيـاء مستجاب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مُفرَّعةٌ على جملة ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾، ومقصودُ التّفريع بيانُ أنَّ اللّه سبحانه استجاب لدعائه ﷺ، فعاقبَهم بالطّوفان.

براعة التّعبير بمفردة الفتح:

التّـهـديـد بفتح أبـواب أُغلقت بأمر الحفيظ، لا بنظام كونيٍّ بديع

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة (فتحنا) في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ دون (شقّقنا) أو (خرقنا)؛ وذلك لأنَّ الفتحَ يكون لِما هو مهيَّأٌ للفتح، وللتّذكير بما يكون يوم القيامة من فتح السّماوات، كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النّبأ: 19]، فهي تُخبر عن حَدَث غيبيٍّ ماضٍ، كما أخبرتِ آيةُ النّبأ عن حدثٍ غيبيٍّ مُستقبليٍّ، وكلاهما استُعمل فيه فتحُ أبوابِ السَّماء، وفي كلاهما كان إنهاءٌ للبشريّة؛ الأوّل: إنهاءُ البشريّة نسبيًّا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.

في ذلك الوقت، والآخر: إنهاء البشريّة مُطلَقًا، والأوّلُ إنذارُ الثّاني. وفي التّعبير بمفردة (الفتح) فتحٌ لأبواب التّحذير والتّنبيه والوعيد والتّهديد، فإنَّ الأبوابَ الّتي فُتِحَت لقوم نوحٍ، قد أُغلِقَت برعاية الله تعالى وحفظه.

توجيه القراءات القرآنيّة:

قرأ ابن عامر قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ بتشديد التّاء: ﴿فَفَتَّحۡنَآ﴾، وقرأ الجمهور بالتّخفيف: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾[1]، وقراءةُ التّشديد لها مزيدُ دلالةٍ على قراءة التّخفيف، وهو المُبالغة في الفتح وتَكراره؛ وصيغةُ التّفعيل تدلُّ على كثرة الأبواب، فهي لتكثير المَفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 23]. فلولا أنّ الأبوابَ كثيرةٌ ما بالغَتْ في الإغلاق كيفًا وكمًّا، فالمبالغةُ إذًا حاصلةٌ في قوّة الفعل، وفي عدده بتكراره على التّوزيع؛ إذًا كثرة المفعول يَلزمُه تكثيرُ الفعل[2].

تضعيف الفعل يدلُّ على المُبالغة في الفتح وكثرة الأبواب

نُكتَةُ ذكرِ ﴿أَبۡوَٰبَ﴾ بدلًا من حذفها:

آثَر النّظمُ الكريم ذِكرَ لفظِ ﴿أَبۡوَٰبَ﴾ بدلًا مِنَ الاقتصار على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾، فلم يقُل: (فَفَتَحنا السّماء)؛ وذلك للإخبار بأمرٍ غيبيٍّ يومِئ إلى شيءٍ من خلق الله المُحكَم، الّذي يغيب عن عقولنا، ولإكساب الآية صورةً مُركَّبةً مِنَ السّماء بأبوابها، ولأنَّ هذا هو الواقع الّذي حصل يوم الطّوفان.

الإخبار عن الواقع الغَيبيّ يُعينُ على الجمع بين التّرهيب والتّرغيب

نوع الإضافة ودلالتُها:

إضافةُ الأبوابِ إلى السّماء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنى اللّام، فهي تدلُّ على الاختصاص، أو بمعنى (في)؛ أي: أبوابًا في السّماء، وهي إضافةٌ مكانيّةٌ، من إضافة الجُزء إلى الكلّ، والشّيء إلى مكانه، لأنَّ الأبوابَ جُزءٌ مِنَ السّماء ومُتَّصِلةٌ

أبواب السّماء غيبيّةٌ لا نعلم عن حقيقتها إلّا ما ورد به الخبر

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 258.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 258، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 319.

بها، والمَعنيان مُرادان، ودالّانِ على مَعنًى غيبيٍّ لا نَعلمُهُ على وجه التّحقيق إلّا بما جاء به النّقل السّديد.

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة:

أبدع الاستعارات ما اجتمع فيه التّشبيهُ المُركَّبُ والمُفرَدُ

في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيثُ شبَّهَ هيئةَ نزولِ المَطرِ الغزير المُتدفِّقِ مِنَ السّماء، بصورةِ جماعاتٍ تندفِعُ خارجةً من أبوابٍ مفتوحةٍ. فكأنّ السّماءَ دارٌ، والأمطارَ سيلٌ مِنَ الخلائق ينفجرُ اندفاعًا من تلك الأبواب، كما يخرج النّاسُ دفعةً واحدةً من أبواب الدّار في حال الطّوارئ أو الازدحام. ولا يَخفى ما في هذا التّوجيه مِن اشتماله على الاستعارة على سبيل التّشبيه المُركَّب والتّشبيه المُفرَد[1]، والتّشبيهُ المُفردُ استعارةٌ مَكْنِيَّة؛ إذ شُبّهت السّماء بشيء عظيم ذي أبواب، ثمّ حُذِف المُشبَّه به، ورُمِز إليه بلازمه، وهي الأبواب، والمَكْنِيّة قائمةٌ على تخييل السّماء كالبناء، وانفتاح المطر كانفتاح الأبواب، وقيل: "الكلام على حقيقته"[2].

نوع الباء ودلالتُها:

الماء هو أداة فتحِ أبواب السّماء، ليكونَ جندَ اللهِ النّاصر

تحتمل الباء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ﴾ أن تكونَ لِلآلة، كفتحتُ البابَ بالمِفتاح. ويجوز أن تكونَ للمُلابَسة؛ أي: كان الفتْحُ مَقرونًا ومُلتبِسًا بنزول الماء. كأنّ أبوابَها لا تُفتَح في تلك الحال مِنَ المُلابَسة والاقتران، والآلةُ أبلغُ في التّصوير[3]. فكأنّ الماءَ جاء وفتحَ أبوابَ السّماء كما يَفتَح المِفتاحُ البابَ، وعلى هذا تفسير قول مَن يقول: يَفتَحُ اللّهُ لك بخيرٍ؛ أي: يُقدِّرُ خيرًا يأتي ويَفتحُ البابَ، وعلى هذا ففيه لطيفةٌ، وهي من بدائع المعاني، وهي أن يُجعَلَ المقصودُ مُقدَّمًا في الوجود، ويقولُ: كأنَّ مَقصودَكَ جاء إلى بابٍ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.

مُغلَقٍ ففَتَحَهُ وجاءَكَ، وكذلك قولُ القائل: لعلَّ اللّهُ يَفتحُ برزقٍ؛ أي: يُقدِّرُ رِزقًا يأتي إلى الباب الّذي كالمُغلَقِ فيَدفَعُهُ ويَفتَحُهُ، فيكونُ اللّهُ قد فتحَهُ بالرِّزق[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

السّماء الّتي نزل منها ماءُ العذاب هي المعهودة

(أل) في السّماء في قوله تعالى: ﴿أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد الذّهنيّ؛ أي: السّماء المعهودة الّتي تُدركها العقول، وتعرِفُها الأنظار، لا سماء مجهولة أو غير مألوفة، فهي السّماء الّتي فوق رؤوس الخلائق الّتي تغطي الأرضَ، وهي الّتي يَنزِل منها المَطر.

نُكْتَةُ تنكير لفظ (ماء):

التّنكير للتّكثير والتّهويل

نُكِّر لفظ (ماء) لإفادةِ التّكثير والتّهويل، فهو الماء المعروف، لكنّه غيرُ مَعهود في شدَّته وانهماره، يفوقُ ما يعرِفُهُ النّاسُ ممّا شاهدوه؛ فلا يُقاسُ بما يَألَفون من أمطار.

بلاغة المَجاز في صيغة ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾:

تدفُّقُ الماءِ بقوّةٍ شديدةٍ تصويرٌ لحركةِ الماء في إغراق الظّالمين

وُصِفَ الماءُ بالانهمار في قوله تعالى: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ بصيغة اسم الفاعل؛ لتدلَّ على التَّدفُّق الذّاتيّ للمطر، والانصبابِ التّلقائيّ المُستمرِّ للماء بغزارةٍ، وبناءُ (مُنفَعِل) يأتي كثيرًا للمُطاوعة، ككسرتُه فانكسرَ، لكنَّه هنا لا يُرادُ به مُطاوعةُ فعلٍ سابق؛ أي: لم يسبقْهُ فعل (هَمَرْتُه)، بل استُعملَ الفعلُ على معنى التّدفُّق والانصباب من ذاته، فصار دالًّا على الانفعال الذّاتيّ أو الوقوع من غير سببٍ ظاهرٍ، والفاعلُ الحقيقيُّ لانهمار المطر هو الله ﷻ، ووصفُ الماء بأنّه ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ على بناء اسم الفاعل من تلقاء نفسه مَجازٌ عقليٌّ، فالماءُ المُنهمِرُ مَفعولٌ به على الحقيقة، لكنّه جُعِل في صورة الفاعل مَجازًا، مبالغةً في تصوير شدَّتِه في القوّة والاندفاع، كأنّما يَنهمِرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 296.

من تلقاء نفسه مراعاةً لظاهر ما يبدو للنّاظر أنّه كذلك. فحين يُجعَلُ الماءُ كأنّه يَنهمرُ بنفسه ومن تلقاء ذاته، يُدرِكُ السّامِعُ أنّ اندفاعَهُ جارٍ بلا عائقٍ ولا تكلُّفٍ، بل هو غامرٌ طاغٍ.

بلاغة التّعبير بمفردة ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾:

الانهمـــــارُ وصفٌ دالٌّ على الانصباب بشدّة وكثرة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾؛ لِتدلَّ على أنّه مُنصَبٌّ بأبلغ ما يكون مِنَ السّيلانِ عِظَمًا وكَثْرةً، ولذلك لم يقُل: (بِمَطَرٍ)؛ لأنّه خارجٌ عن تلك العادة[1]، فالانهمارُ وصفٌ دالٌّ على المبالغة الشّديدة المُتتابِعة.

دلالة التّعبير بمفردة (فجّرنا):

قـوّة الانفجارِ وشدّتُه تدلّانِ على قَصْديّة الفعل بغَرض الإغراق

يدلُّ استعمالُ فعلِ التّفجير دونَ فعلِ الخروج في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ على القوّة مع الفجأة في الخروج، فهو إخراجٌ مَخصوصٌ، والتّضعيفُ في الفعل للتّعدية، ولو قال: (أخرجْنا عيونَ الأرض) لدلَّ على مُجرَّد فعلِ الإخراج، ولما أشعرَ بقوّة الفعل الدّالِّ على شديد الغضب بغرض الإغراق.

بلاغة المناسبة في العطف بين الجُمَل:

عيـونُ الأرض وأبـوابُ السّماء تشهدان بهَوْل الغضبِ الإلهيّ

ناسبَ ذكرُ تفجير عيون الأرض في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ ذكرَ انهمارِ المطر مِنَ السّماء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، فكما أنَّ الماءَ مُنهمِرٌ مِنَ السّماء بقوّة، فهو مُتفجِّرٌ مِنَ الأرض بشدَّةٍ وقوّةٍ؛ ليلتقيَ غضبُ الماءِ النّازل مِنَ السّماء بغضب الماء المُتفجِّر مِنَ الأرض؛ استجابةً للأمر الإلهيّ، فالماء هنا جنديٌّ من جندِ الله تعالى، وشأنُ الجنديّ أن ينتصرَ لرُسل الله، وأن يستجيبَ لأمر الله، فكأنّ الماءَ حاصرَهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، في صورةٍ بالغةِ الرّهبة، تُجسِّدُ شدّة العقاب، وهو معنى قولِه تعالى في مَوضِع آخر: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: 14].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 104.

بلاغة التّشبيه البليغ:

تصويرُ الأرض بأنّها عيونٌ تتفجَّر ماءً

في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ تشبيهٌ بليغ، وتقدير الكلام: الأرض عيون، لكن لمّا دخلَ فعلُ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ جعل المبدأ مفعولًا به والخبرَ تمييزًا، ونُكْتَتُهُ تصويرُ الأرضِ بأنَّها كلَّها أو ذاتَها جُعِلت عيونًا مُتفجِّرة، لا مُجرَّدَ أنَّ العيون تنبعُ من باطنها، فهذا المعنى هو تشبيهٌ بليغ حُذِفت منه أداةُ التّشبيه ووجهُه، فكأنّه قيل: الأرض عيونٌ؛ وذلك للمبالغة، والأصل: أنّها كالعيون باستحضار أداة التّشبيه المَحذوفة[1].

المقابلة البيانيّة بين جُملَتَي: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ و﴿وَفَجَّرۡنَا﴾:

موازنة بلاغيّةٌ بين فتح الأبواب وتفجير العُيون لتعظيم الحَدَث

وقعَ تقابلٌ ضِدّيٌّ بين جملة ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وجملةِ ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾، إذ حقَّق التّقابُلُ توازنًا بلاغيًّا يدعَمُ مَشهَد الطّوفان الكونيّ الشّامل، حتّى تبدوَ الأرضُ كأنّها انقلبَت على مَنْ فيها، ووجه ذلك: أنّه جعل المياهَ نازلةً مِنَ السّماء من أبوابٍ مَفتوحةٍ واسعةٍ، ولم يقُل في الأرض: (وأجرينا مِنَ الأرض بحارًا وأنهارًا)، بل قال: ﴿عُيُونٗا﴾ والخارج مِنَ العين دونَ الخارجِ مِنَ الباب، فالعينُ أقلُّ وأصغرُ، ولِدفع توهُّم أنّ الخارجَ مِنَ الأرض كان أقلَّ مِنَ المَنصبِّ مِنَ السّماء، ذَكرَ في الأرض أنّه تعالى فجّرها كلّها، فقال: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: كلَّها؛ لِتُقابِلَ كثرةُ عيونِ الأرضِ سعةَ أبوابِ السّماء، فيحصلَ بالكثرةِ هاهنا ما حصل بالسّعةِ هاهنا[2].

بلاغة التّمييز المُحوَّل عنِ المفعول:

إبراز هول المَشهَد بجعل الأرض كلِّها عيونًا مُتفجِّرة

جاء التّمييزُ في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ مُحوَّلًا عنِ المفعول، والتّقدير: وفجّرنا عيونَ الأرض، والعدول عن ذكر العيون مَفعولًا إلى جعله تمييزًا أبلغُ؛ لأنَّ فيه تصويرًا للأرض كلِّها، وكأنّها

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 320.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 297.

تحوَّلت إلى عيونٍ مُتفجِّرَةٍ، لا مُجرَّد أنَّ عيونًا مَعدودةً فُجِّرَت منها. فهو يضفي شمولًا وعمومًا، ويُظهِرُ شدّةَ الطّوفان وكثرةَ الماء من كلِّ ناحية، كأنّه قيل: لم يبقَ مَوضِعٌ مِنَ الأرض إلّا صار عينًا مُتفجِّرة، وكأنّ وجهَ الأرض بأسره تحوَّلَ إلى عيونٍ تفيض[1]. وأيضًا للتّمييز هنا بلاغةٌ دقيقةٌ؛ وهو إفادةُ التّهويل بالإبهام ثمّ البيان[2]؛ إذ لو قيل: (وفجّرنا عيونَ الأرض)، صار الذّهنُ يذهب إلى عيون مَعلومة في الأرض، وكأنّها أماكنُ مُتفرِّقةٌ مَحدودةٌ، لكن لمّا قال: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ حصل الإبهامُ، **أوّلًا:** فذَكَرَ الأرضَ وحدَها دون تقييد، فأنت لا تدري ما الّذي فُجِّر منها، ثمّ جاء البيان بالتّمييز بكلمة ﴿عُيُونٗا﴾ فوضَّح نوع التّفجير، لكن بعد أن شدَّ ذِهنَ السّامع وأوقعَه في رهبة الانتظار، فكأنّ الأسلوبَ يقول: الأرضُ كلُّها صارَت عيونًا مُتفجِّرةً، لا مُجرَّد بعضِ العيون المَحدودة. إذًا، (الإبهام ثمّ البيان) تَرَكَ المُستمِعَ لحظةً في غموضٍ مَهيبٍ، ثمّ كَشفَ المفاجأة بما هو أعظمُ وأفخم ممّا يَتوقَّع.

غرضُ تنكير لفظ ﴿عُيُونٗا﴾:

تعميم مَشهَد الانفجار وتكثير العيون للمُبالغة في الطّوفان

نُكِّر لفظُ العيون في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ لعلّتين: إعرابيّة وبيانيّة. فالعلّة الإعرابيّة لأنَّها تمييزٌ مُحوَّلٌ عنِ المفعول به، والتّمييز في الأصل يكون نكرةً[3]. والبيانيّة فللتّكثير والتّهويل؛ أي: عيونًا لا تُحصى ولا تُحدُّ، وكأنّ الأرضَ كلَّها انبجسَت عيونًا مُتدفِّقةً.

نوع الفاء ودلالتُها:

اجتماع الماءَين نتيجةَ التّفجير والإنزال، بلا فواصل ولا إبطاء

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ للتّعقيب السّريع؛ أي: جاء التقاءُ ماءَي السّماء والأرض عقبَ التّفجير وفتحِ الأبواب؛ فأفادَت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 177.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 312.

أنَّ اجتماعَ الماءَين كان نتيجةً عاجلةً لذلك التّفجير والإنزال، لا فاصلةَ فيه ولا إبطاءَ[1].

دلالة التّعبير بمُفردة الالتقاء:

تـلاقـي المـاءَيـن مَـشـهَـدٌ مَـهـولٌ في تصوير اتّحاد السّماء والأرض في التّعذيب

أفاد التّعبيرُ بمفردة الالتقاءِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ تصويرَ مَشهَدِ اجتماعِ ماءِ السّماء المُنهمِر مع ماء الأرض المُتفجِّر. فكلمةُ (التقى) تدلُّ على أنّ الماءَين التقيا بقوّةٍ، واندمجا اندماجًا شديدًا، حتّى صار الماءُ من فوق ومِن تحت كتلةً واحدةً، في مَشهَدٍ رهيبٍ، ولو جرى ماءُ الأرض المُتفجّر جريًا ضعيفًا لَما التقى مع ماء السّماء، بل كان ماءُ السّماءِ يَرِدُ عليه ويتّصِلُ به[2]، ودلَّت مُفردةُ الالتقاء على العذاب المُغرِق، إذ كلُّ ما قبل الالتقاء مُقدِّمةٌ وتوطِئةٌ للعذاب، فلمّا وقعَ الالتقاءُ نزلَ العذابُ الماحِقُ.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَآءُ﴾:

المـاء المُلتقي هو الـجـامـع بين مَصدري الإغراق

﴿ٱلۡمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ للعهد الذّكريّ، إذ سبق ذكرُه مرّتين: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ وهو ماء السّماء، وفي قوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ وهو ماء الأرض[3]؛ فلمّا قيل: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ صار التّعبيرُ بـ(أل) العهديّة إشارةً جامعةً إلى هذَين الماءَين معًا؛ أي: أنَّ (أل) جمعَتِ الماءَين المَذكورَين لتصويرهما، وكأنَّهما ماءٌ واحدٌ عظيمٌ مُتدفِّقٌ، يلتقي بأمر الله تعالى.

دلالة إفراد كلمة ﴿ٱلۡمَآءُ﴾:

وَحـدَةُ مَقصَدِ الـعـذاب بالماء يُـناسبه إفـرادُ الماء

عدل النّظمُ الكريم عن تثنية الماء، فلم يقُل: (فالتقى الماءان)، مع أنّهما ماءان، (ماء السّماء، وماء الأرض)، وأفرد ذكر ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ توحيدًا لهما؛ لأنّهما لمّا التقيا، وكثرَتِ الكمّيّةُ، وعَظُمَ الخطرُ، صارا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 296، 297.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

ماءً واحدًا مُتعاظِمًا مُتوحّدَ الهيئة[1]. فالإفرادُ لتحقيق أنّ التقاء الماءين لم يكُن بطريق المجاورة، بل بطريق الاختلاط والاتّحاد[2]، ولمّا كان مقصودُ الماءَين واحدًا ناسب التّعبيرُ بالإفراد دون التّثنية.

بلاغة الاستعارة المكنيّة:

تـصـويـرُ المـاء كفاعلٍ مُختارٍ، وإظـهـارُ تدبير الله في الالتقاء

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شُبِّه فيها الماءُ بشخصٍ عاقل، وحُذِف المُشبّه به، ورُمِزَ له بفعل ﴿فَٱلۡتَقَى﴾، ونُكْتَةُ الاستعارةِ تصويرُ مَشهَد الفيضان كأنّه مَوعِدٌ مَحتومٌ بين طرفين قاصدين اللّقاءَ. وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا اللّقاءَ ليس اتّفاقًا عفويًّا، بل بأمرٍ قد قُدِر؛ أي: بقَدَرٍ إلهيٍّ مَقصودٍ. فالاستعارة أظهرَتِ الماءَ كفاعلٍ مُختارٍ؛ لتوكيد أنّ الحَدَثَ جارٍ على تدبيرٍ مُحكَمٍ، لا على سبيل المُصادَفة.

دلالة حرف الاستعلاء:

الطّـوفـان وافـقَ أمـرًا سابقًا في اللّوح المحفوظ

حرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ للاستعلاء المجازيّ[3]؛ أي: أنّ التقاءَ الماء وقَعَ موافقًا ومُطابقًا لأمرٍ مُحكَم مُقدَّرٍ، قُدِّر قبلَ حدوثه تقديرًا دقيقًا لا خَلَلَ فيه، وكأنّه كُتِب في قضاءٍ سابقٍ أن يقع هذا الطّوفان بتلك الصّورة.

غرض تنكير لفظ ﴿أَمۡرٖ﴾:

عـظَـمـةُ تـدبـير الـلـه تَـظْـهَـر في إبهام الأمر وبيانِ إحكامه

نُكِّر لفظ ﴿أَمۡرٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ للتّعظيم والتّهويل، فالتّنكير يُصوّر الأمرَ على أنّه شيءٌ عظيمُ الشّأن، مُبهَمٌ في أوّل وهلة لزيادة الرّهبة، ثمّ يُبيَّن بكونه مُقدَّرًا مُحكَمًا. وفائدة ذلك: الجمع بين الإبهام المَهيب والإيضاح المُحكَم، بأنّ الطّوفانَ لم يكُن صدفةً، بل بأمرٍ مَخصوصٍ مِنَ الله تعالى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

دلالة التّعبير بـ﴿قَدْ﴾:

العقوبةَ الّتي نزلَت بهم قضاءٌ إلهيّ مُحكَمٌ

دلَّ التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ مُصدَّرًا بـ﴿قَدْ﴾ التَّحقيقيّة على أنّ العقوبةَ الّتي نزلَت بهم قضاءٌ مُحكَمٌ، وأنّ هذا الإهلاكَ مَحكومٌ مُتقَنٌ مُرادٌ في الحكمة الإلهيّة بما يجعل مشهَدَ العقابِ مَشحونًا بالرّعب والهيبة.

نُكْتَةُ بناءِ فعل ﴿قُدِرَ﴾ للمَفعول:

هـول التّقدير يَجبُر السّكوتَ عن مُقدِّره

استُعمل البناءُ للمفعول في قوله: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾، ولم يقُل: (قدّرناه)، مع أنّ الله هو المُقدِّر؛ ليَقَعَ التّركيزُ على عظَمة التّقديرِ نفسِه، فالعناية موجَّهةٌ إلى نفس الحَدَث (التّقدير) لا إلى الفاعل (الله)؛ لأنّ المَقامَ مَقامُ تهويلٍ وإرهابٍ للمَشهَد لا مقامُ تبيينِ مَن قدَّره. فالمراد إبرازُ أنّ التّقديرَ واقعٌ ثابتٌ مُحكَمٌ بنفسه، لا يُسألُ عنه، ولا يُناقَشُ في عظمته. وفي صيغة البناء للمَفعول إشعارٌ بأنّ الأمرَ خارجٌ عن قدرةِ الخَلْق، فالأمرُ مُبرَمٌ مَحكومٌ لا يستطيع أحدٌ دفعَه أو تغييرَه، فكأنّ التّقديرَ نفسَه صار حقيقةً ماثِلةً مَفروغًا منها، لا محلًّا للنّقاش في فاعلها[1]، مع ما فيهِ من تفخيم التّقدير، فإنّه لمّا لم يُذكَر الفاعل (الله)، وأُبرِزَ الفعل وحدَه، دلّ ذلك على أنّ التّقديرَ أعظمُ من أن يوصفَ أو أن يرتبطَ بفاعلٍ بلفظٍ عاديٍّ، بل هو تدبيرٌ إلهيٌّ خفيٌّ مَهيبٌ، فضلًا عن مناسبتِه السّياقَ، فالسّياقُ كلُّهُ تصويرٌ لأحداثٍ هائلةٍ خارقةٍ لعاداتِ البشر (طوفانٌ يغمُر السّماءَ والأرض)، فناسَبَ أن يأتيَ الفعلُ بطريقةٍ تُعظِّم الفِعلَ وتُهَوِّله في النّفوس.

فائدة وصف الأمر بأنّه ﴿قَدْ قُدِرَ﴾:

جملة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ في محلّ جرّ نعتٌ لـ ﴿أَمْرٍ﴾[2]. وفائدةُ الوصف: التّنبيهُ على الإحكام والتّقدير المُسبَق، كما أنّ الوصفَ يُظهِرُ العنايةَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.
(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 150.

الإلهيّةَ بالجزاء، ففيه طمأنةٌ للمُؤمنين أنّ ما وقع حقٌّ وعدلٌ. ولا يخفى ما فيه مِنَ التّأكيد على نفاذ القدرة في التّوقيت المُقدَّر لها، فلا يخرج شيءٌ عن تقديره، ولا يتخلَّفُ عن ميقاته. والمقصود مِنَ الوصف ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ لا يقفُ عند مُجرَّد التّقدير السّابق، بل ينبِّهُ على معنى الدّقَّة في تنفيذ ما قُدِّر، بحيثُ لا تزيد قطرةٌ ولا تنقُص، ولا يتجاوز البلاءُ مَن قُصِد به. كما أنّ فيه إشارةً دقيقةً إلى إحاطة القدرة؛ أي: أنّ وقوعَ الطّوفان لم يكُن لعجزٍ سابقٍ ثمّ تيسَّر، بل هو سهلٌ على الله في أيِّ وقت، وإنّما أجراه في الوقت المُقدَّر لحكمةٍ، ولذا كان في تخفيف اللّفظ في قوله: ﴿قُدِرَ﴾ - ولم يقُل: (قدِّر) - إلماحٌ إلى سهولة وهوان الفعل على الله، مهما بدا عظيمًا عند البشر[1].

أقـــدارُ الـلـه مُحكَمَةٌ لا تزيد ولا تـنـقُـص، وكـلُّـهـا جـاريـة بقُدرته، وهَيّنةٌ على أمره

نوع الواو ودلالتُها:

جملة: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ معطوفةٌ على التّفريع السّابق في قوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾، إذ ترتَّبَ عليه إغراقُ المُكذِّبين. لكن قد يَتوهَّم السّامعُ أن شمول الماء للأرض والسّماء قد عمّ جميعَ الخَلْق بلا استثناء، فجاءَت جملة ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ معطوفة عطفَ (احتراس)؛ لِتدفعَ هذا الوهم، وتبيّنَ أنّ مع الغرق حصلَت نجاةُ نوح، فجمعَتِ الآيةُ بين الهلاك والنّجاة معًا[2]. فعَطفَتِ الواوُ نجاةَ نوح على هلاك قومه.

رحمةُ الله تُرافِقُ نقمتَه، فيُهلِكُ أهلَ التّكذيب، ويَحفظُ أولياءَه

بلاغة تقديم الإغراقِ على الإنجاء:

تقديم ذِكر إغراقِ قوم نوحٍ ﷺ على الإخبار عن إنجائه في السّفينة، من باب تقديم المَقاصِد على الأدوات، والغاياتِ على الوسائل، فالإغراقُ هو مَقصود السّياق، والإنجاء مَعلومٌ بداهةً، فذِكرُهُ تتميمٌ وتكميلٌ.

الإغراقُ مَقصود الـسّـيـاق، والإنجاء مَعلومٌ بداهةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 184.

نُكْتَةُ ذكرِ نوح دونَ مَن معه:

هُمُ القَومُ لا يَشقَى بهِم جَليسُهُم

عُدّي فعل (حملنا) إلى ضمير نوح عليه السلام دون مَن معه في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾، فلم يقُل: (وحملناهم)؛ لأنّ هذا الحِمْلَ كان إجابةً لدعوته ولِنَصرِه، فهو المَقصودُ الأوّل من هذا الحِمْل؛ ولذلك قال: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[1]، ولم يقُل: (كُفِروا)؛ لأنّ الّذي جُحِد أمرُه هو نوح عليه السلام أصالةً، ومَن آمن به تبَعٌ له، ولِما يَقتضيه فِعلُ الحِمْل مِن استلزام حمل المؤمنين معه، بما أفاده عموم السّياق القرآنيّ، فذِكر نوحٍ عليه السلام دون مَن معه لبيان أنَّ إنجاءَ القائد هو إنجاءٌ لِمَن معه، فـ «هُمُ القَومُ لا يَشقَى بهِم جَليسُهُم»[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاء:

مراعاة المُناسبة مع الدّلالة على المَكِنَة والثّبات

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ دون حرف الظّرفيّة؛ وذلك لأنَّه لم يَستعملْ لفظُ (السّفينة)؛ والأنسبُ مع الألواح حرفُ الاستعلاء، فلمّا آثر التّعبيرَ بذات الألواح دونَ السّفينة أو الفُلك، كان الأنسبُ حرفَ الاستعلاء، كما أفاد حرفُ الاستعلاء التَّمكُّن؛ أي: أنّ نوحًا عليه السلام ومَن معه صاروا كالمُستَعلين على الماء، لا الغارِقين فيه. ففيه إشارةٌ إلى رفعة مكان النّجاة وعزّتها، إذ صارَتِ السّفينةُ كظهرٍ يُركَب، لا وعاءٍ يُحتبَس فيه، فكأنّ حرفَ الاستعلاء ألقى على قصّة النّجاة عظمةً وهيمنةً، في مُقابل ذلّة الغارِقين[3].

بلاغة الكناية بحذف المَوصوف:

ما هي إلّا ألواحٌ حامِلةٌ، والعِبرةُ بمَنْ رعاها، وأدار أمرَها

حُذِفَ الموصوفُ في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾، فلم يقُل: (على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ) كنايةً عنِ السّفينة، فالنّظم تَرَكَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 184.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2689).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

التّصريحَ بالمَوصوف، وذَكَرَ لازمَه (الصّفة) [1]؛ ليُفهمَ منه تفخيمُ أمرِ الإنجاء الإلهيِّ، والرّعاية الرَّبانيّة، فاختيارُ الكناية ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ دون السَّفينة فيه إيماءٌ إلى تهوين شأنِ السّفينة بالتّعبير الكنائيِّ، فكأنّه قيل: ما هي إلّا ألواحٌ حامِلةٌ، فالعِبرةُ بمَن يَرعى الألواحَ، ويُدبِّرُ أمرَها، لا بكونها سفينةً عظيمةً.

بلاغةُ التّعبير بمُفردة ﴿أَلْوَاحٍ﴾:

التّعبير بـ ﴿أَلْوَاحٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾، دون أن يقولَ (خَشَبات)، فيه إشارةٌ إلى أنّ تلك الخَشَباتِ قُطِّعَت ونُجِّرَت وصُفَّت بعناية، حتّى صارَت ألواحًا عريضةً مُهيّأةً للبناء، لا مُجرَّدَ خشبٍ خامٍ، كما أنّ في التّسمية بـ﴿أَلْوَاحٍ﴾ مَلمَحًا مِنَ التّكريم، إذ لم يكتفِ باسم الجنس (الخشب)، بل اختار صفةَ الصّنعة النّهائيّة. فالكلمة تَشي بجَودَة الإعداد، ودقّةِ الصُّنع، وتُبرِزُ رعايةَ الله لعبده نوحٍ عليه السلام [2].

تفصيلُ الصّنعة وبيانُ دقّة العملِ مدحٌ لصنيع نوحٍ وأثرِه في السَّفينة

نُكْتَةُ عطفِ الدُّسُر على الألواح:

عَطفُ الدُّسُرِ على الألواح في قوله تعالى: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ للتّعريف بأجزاءِ السّفينة الّتي تركَّبت منها؛ أي: الألواح والدُّسُر، فهي ليست ألواحًا مُبعثَرَةً، بل مجموعةً بتثبيت الدُّسُر لها، وفيه إيماءٌ إلى الأخذ بالأسباب، فإنَّ السّفينةَ لم تتركَّب مِنَ الألواح كيفَما اتَّفقَ، بل صُنِعَت لها الدُّسُر، وثُبِّتَت بها.

الأخذ بالأسباب أصلٌ في عمل الأنبياء

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ لإفادة التّهوين؛ أي: أنّها ألواح ودُسُر يسيرة في أعين النّاس، لكنّها صارَت بأمر الله سببَ النّجاةِ العظيم؛ ليتبيّنَ أنّ النّجاةَ ليسَت بقوّة المادّة بل بقُدرة المَولى.

النّجاةَ ليسَت بقوّة المادّة بل بقُدرة المَولى

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 321.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

توجيه تتابع الصّفات بالذّكر:

الأخذ بالأسباب أصلٌ في التّوكّل في مَسيرة الأنبياء

جملة: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ إمّا في مَوقِع صفةٍ ثانيةٍ للمَوصوف المَحذوف في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أي: سفينةٍ مُتَّصفة بأنّها ذاتُ ألواحٍ ودُسُرٍ وجارية بأعيننا، وإمّا أن تكون حالًا مِنَ المَوصوف المَحذوف (سفينة)؛ لكونه نكرةً مَوصوفةً بـ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾، فليسَت مُتمحّضةً في التّنكير، ولذا صارَت صالحةً لوقوع الحال منها[1]، وعلى الإعرابين فهي في جملة المعنى البلاغيّ صفةٌ لواقع السّفينة، وخُصَّ هذان الوصفان بالذّكر؛ لأنّ الأوّلَ وصفٌ لذات السّفينة، والآخر وصفٌ لملابساتها، ومَوقِعُ الصّفة الثّانية مِنَ الأولى مَوقِعُ المُبيِّن مِنَ المُبيَّن، إذِ الجَرَيان برعاية الله تعالى بيانٌ لحمل نوحٍ عليه السلام على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ، فالحفظُ لم يكُن بالسّفينة الّتي صفَتها أنّها ذاتُ ألواحٍ ودُسُرٍ، بل بكونها جاريةً برعاية الله وحفظه، وبه يتكامَلُ تخصيصُ السّفينة بهذَين الوصفين بالذّكر، الجامِعَين بين هوان الأسباب، وعظَمةِ الرّعاية الإلَهيّة، وبه يتحقَّق تمامُ التَّوكُّل على الله تعالى.

نُكتة تقييدِ الجَري بقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾:

العناية الإلهيّة هي الّتي تحفظ عبادَ الله في الشّدائد

قُيِّد فعلُ الجري في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بكونه جاريًا برعاية الله تعالى؛ دفعًا لتوهُّم أنَّ السّفينةَ جاريةٌ بهذه الألواح والدُّسُر، فالسّفينة مَحفوظةٌ بعين الله لا بقوّة مادّيّتها، فهو الّذي يَسوقُها ويَحفظُها ويَهديها وسطَ الماء المُتلاطِم، بعنايته الخاصَّة، فالآيات تُرشِدُ القارئَ إلى أن لا يَنظُرَ إلى السّفينة من حيثُ مادّتُها، بل من حيثُ عينُ مَن يُجريها ويحفظُها[2].

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 151.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 106، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

نوع الباء ودلالتُها:

رعـايـةُ الـلـه وحـفـظُـه سببُ نجاة المؤمنين

الباء في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ سببيّة، فرعاية الله وحفظه هي سببُ جريان السّفينة، ويكون فعلُ ﴿تَجْرِي﴾ كنايةً عنِ النَّجاة، بذِكر الوسيلة، وهو فعل الجريان وإرادةُ الغاية، وهي النّجاة؛ فالحفظُ سببُ النّجاة، وقيل: للمُلابسة[1]؛ أي: مُلتبِسةً برعايتنا وحفظنا[2].

دلالة جمع ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾:

حِفظُ اللهِ واسِعٌ لا يَحدُّهُ ظرفٌ ولا عَددٌ

جُمِعَ لفظُ العَين في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ لِتقوية المَعنى؛ لأنّ الجمعَ أقوى مِنَ المُفرَد؛ أي: بِحراساتٍ مِنّا وعِناياتٍ. ويجوز أن يكونَ الجمعُ باعتبار أنواع العِناياتِ بتنوّع آثارها. وأصلُ استعمال لفظ العَين في مِثلِ هذا تَمثيلٌ بحال النّاظر إلى الشَّيء المَحروس مِثلِ الرّاعين، كما يُقالُ لِلمُسافر: (عينُ اللهِ عليك)؛ أي: راعٍ لك، ثمّ شاع ذلك حتّى ساوى الحقيقةَ، فجُمِعَ بذلك الاعتبار[3].

بلاغة الكناية:

كـنـايـةٌ عـنِ الحفظ والرّقابة والعناية

التّعبير بـ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ كنايةٌ عنِ الحفظ والرّقابة والعناية؛ أي: بأمرنا وبمَرأى منّا وتحت حفظنا وكلاءتنا[4]، فكُنّي بالأعين عنِ الحفظ والرّعاية التّامّة.

غرض تنكير لفظِ ﴿جَزَآءً﴾:

عِـظَـمُ المـجـازاة يـتـنـاسـب مع عظَم العمل

نُكِّرَ لفظُ ﴿جَزَآءً﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ للتّفخيم والتّهويل؛ أي: جزاءً عظيمًا خاصًّا يناسب عِظَمَ العقوبة، وفيه أيضًا تعميمٌ ليشمَلَ كلَّ ألوان الجزاء المُستحقِّ، لا نوعًا واحدًا منه.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 477.

بلاغة مَوقِع ﴿جَزَآءً﴾ بما قبلَه:

إعمالُ مَجموعِ المعاني أولى من إعمال أحدِها

قوله تعالى: ﴿جَزَآءً﴾ مَفعولٌ لأجله، والعاملُ فيه فعلُ (فتحنا) وما عُطِفَ عليه؛ أي: فعلْنا ذلك كلَّهُ جزاءً لِنوحٍ[1]، كأنّه قال: فتحْنا أبوابَ السَّماء، وفجَّرنا الأرضَ عيونًا، وحملْناه جزاءً لنوحٍ، وهذا في غاية الإكرام لِمَن صَبَرَ على قومِه داعيًا إلى اللّه تعالى، فمَجموعُ السّابق مِنَ السّياق هو المُؤثِّر في المَعنى، وهذا أظهرُ وأحسنُ مِن نصبه بفعل (حملناه) وحدَه، أو نصبِه بقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ وحدَه؛ لأنَّ الجزاءَ ما كان يحصُلُ إلّا بحفظِهِ وإنجائِهِ معًا، فوَجَبَ أن يكون ﴿جَزَآءً﴾ مَنصوبًا بكونه مَفعولًا له بهذه الأفعال[2].

دلالة ذِكرِ فعلِ الكونِ الماضي:

عقوبةُ الظّالِمين لا تكون لمُجرَّد الكفر، بل للاستمرار فيه والعِناد عليه

دلَّ ذِكرُ فعلِ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ على أنّ كُفْرَ قومِ نوحٍ به قديمٌ ومُستمرٌّ منذ أن جاءَهم بالرّسالة، فلم يقُل: (لِمَن كُفِر)؛ وذلك لأنّه ليس المقصود بيانَ أنّه كفرٌ فحسب، بل لبيان أنَّه كُفِر به منذُ زمانٍ مضى، فهو عريقٌ في اتّصافه بأنّه مَكفورٌ به، وذلك نحو ما حُكي في سورة نوح بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ [نوح: 5] إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 8 - 9][3]، وهو ما يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى لا يُحاسِبُ النّاسَ بمُجرَّد وقوعِ الكفر، بل باستمرارهم عليه، وإصرارهم، وعنادهم على نبذ دعوة الحقِّ.

نُكْتَةُ بناءِ فعل ﴿كُفِرَ﴾ للمفعولِ:

الانتصارُ للدّعوة مَجمَعُ خيوطِ الجزاء

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نوحٍ عليه السلام بالمَوصول والضّمير المُستتر والفعلِ المَبنيِّ للمَفعول في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، دون ذِكر

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 297.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

الاسم الصّريح؛ لأنَّ الإبهامَ في مَقام العِلم بالمَمدوح يورِّثه تعظيمًا وتشريفًا، كما أفاد أنَّ الجزاءَ لم يكُن لنوحٍ ﷺ بالاعتبار الخاصّ، بل باعتبارِه قد كُفِر من قومه بسبب دعوته لله تعالى، فالانتصار في مآل الأمر هو للدّعوة، فالجُحودُ لم يكُن لنوحٍ ﷺ فقط، بل كان جُحودًا لحقيقةٍ عظيمةٍ تمثَّلَت فيه، فهو عبدُ اللّه ورسوله.

بلاغة المَجاز بحذف مُتعلَّق فعل ﴿كُفِرَ﴾:

كثرة المعاني أوفرُ في بيان الواقع مِـنَ الاقـتـصـار على بعضها

حُذِفَ مُتعلَّقُ فعلِ ﴿كُفِرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ للدّلالة عليه مِنَ السّياق، وانفتاحِ المعنى، وفي ذلك بلاغةٌ وإيجازٌ، وتكثيرٌ لِلجهات الّتي وقَعَ منها الكفرُ، فهو كفرٌ برسالته، وكفرانٌ بأداء شكره على ما قدَّمَ في سبيل إنقاذ قومِه مِنَ الهلاك الماحِق، والمَعنيان المُحتمَلان لـ﴿كُفِرَ﴾؛ أي: كُذِّب وكُفِر برسالته، وهو الأشهر، أو كُفِر إحسانُه ونُصحُه، وجُحِدَ فضلُهُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]؛ أي: لا تجحدوا نعمتي. وفي هذا المعنى الثّاني إشارةٌ دقيقةٌ إلى أنّهم كفروا نعمتَهُ ونُصحَهُ ومعاناتِه، فجاء العذابُ جزاءً على ذلك الجحود، وفي هذا مزيدُ تسليةٍ للنّبيّ ﷺ[1].

نوع الواو، ودلالتُها:

الانـتـقـال من مَشهَد النّجاة إلـى مَـشـهَـد العِبرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ تَحتملُ العطفَ على السّابق أو الاستئناف[2]؛ لأنّها جاءَت لابتداء غرضٍ جديدٍ بعد تمام الخبر عن إنجاء السّفينة، وهذا الغرض هو الانتقال من مَشهَد النّجاة إلى مَشهَد العِبرة.

دلالة تتابُع المؤكِّدات:

تتابُعُ المُؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ لتقوية المعنى وتحقيقِ الدّلالة، فأفادَتِ اللّامُ توكيدَ الخبر،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.
(2) درويش، إعراب القرآن، 9/ 378، وصافي، الجدول: 14/ 70.

إقامةُ الآية البالغة أمرٌ مُحقَّقٌ لا يُنكرُهُ إلّا باهِتُ الفكر

و(قد) التّحقيق؛ أي: أنّ الأمرَ واقعٌ مُحقَّقٌ لا شكَّ فيه، والفعلُ الماضي ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ يدلُّ على التَّحقُّق والوقوع النّاجز، وهذا التَّراكُم في أدوات التّوكيد يُؤذِنُ بأنّ تَركَ السّفينة أو القصّةِ آيةً باقيةً أمرٌ ثابتٌ قطعيّ لا يُدفَعُ ولا يُجادَلُ فيه، حتّى لا يكون لأحدٍ عُذرٍ في الغَفْلة عنه. فالوظيفة البيانيّة لتلك المُؤكِّدات هي قطعُ العُذر وتثبيتُ الحُجّة، فقد يَضِلُّ السّامعُ ويتوهَّمُ أنّ ذلك من الأساطير أو الخيال، فجاء هذا التّأكيد المُتتابِع ليجعلَ الخبرَ في أعلى مَراتِب التّحقيق[1].

تعيين مَرجِع الضّمير ودلالتُه:

السّفينة أو القصّة أو الحادثة بكاملها معجزةٌ هائلةٌ وعبرةٌ باقية

يعودُ الضّميرُ في فعل ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ إلى السّفينة، أو القصّة، أو إلى الحادثة بكاملها[2]، وإبهامُ مَرجِع الضّمير فيه إجمالٌ مَقصودٌ؛ للتّفخيم؛ أي: تركنا شيئًا عظيمًا، مُعجزةً هائلةً، عِبرةً باقيةً.

غرض تنكير لفظِ ﴿ءَايَةَۢ﴾:

آيةٌ عظيمةٌ باهرةٌ لا تُدفَع

نُكِّر لفظُ ﴿ءَايَةَۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةَۢ﴾ للتّعظيم؛ أي: تركناها آيةً عظيمةً باهرةً لا تُدفَع؛ لِتكونَ عِبرةً لِمَن يأتي بعدَهم. فتنكيرُها يُشعِرُ بأنّها مِنَ الجلال والعِظَم بحيثُ لا تُحصَرُ في وصفٍ أو تُقيَّدُ بحَدٍّ.

بلاغة التّعبيرِ بمفردة ﴿ءَايَةَۢ﴾:

الآيةُ جامِعةٌ بين الدّلالة الحِسّيّة والمعنويّة

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة ﴿ءَايَةَۢ﴾ دون (عِبرة) أو (عِظةٍ) ونحوهما؛ وذلك لأنّ ﴿ءَايَةَۢ﴾ تشمَلُ معنى الدّلالة الواضِحة والمُعجزة المُبهِرة، فهي ليست مُجرَّدَ قصّةٍ تُحكَى، بل علامةٌ ربانيّة شاهدةٌ على القُدرة والعدالة والنّصر. فالآيةُ تشمَلُ السّفينةَ الباقيةَ كآثارٍ مَرئيّةٍ، ونجاةَ المؤمنين، وهلاكَ الكافرين، وتدبيرَ الله للأمر

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 322.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 106.

كلِّه مِنَ السّماء والأرض[1]، كما أنّها تتركُ السُّنّةَ الباقيةَ لِمَن بعدَ قومِ نوحٍ في العالمين، ولاسيّما أنَّ حَدَثَ الطّوفان هو الأشملُ والأعمُّ في البشريّة من أحداث القِصصِ الغابرةِ، والأممِ العابِرة؛ فهي جامِعةٌ بين الآية الحِسّيّة والمعنويّة.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ:

قـــدرةُ الـلـه تـسـتـغـرقُ أحـوالَ الإيجاد وأحـوالَ الإبقاءِ والاستدامة

جاء استعمالُ مُفردةِ التّركِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾، بينما قال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: 15]؛ فآثَر الجَعلَ؛ وذلك لأنَّ ذِكرَها في سورة القمر وردَ بعد ذِكرِ كيفيّةِ صُنعِها، وحُدوثِ الطّوفان، وحَملِ نوحٍ في السّفينة؛ فأخبرَ بأنّها أُبقيَت بعد تلك الأحوال، فالآيةُ في بَقائها، وفي سورة العنكبوت وردَ ذِكرُ السّفينة ابتداءً، فأخْبَر بأنّ اللّهَ جعلَها آيةً إذْ أوحَى إلى نوحٍ بصُنعها، فالآيةُ في إيجادها، وهو المُعبَّر عنه بـ ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ [العنكبوت: 15][2]. ففي سورة القمر ذَكَرَ التّركَ بعد تفصيل الأحداث، وفي العنكبوت ذَكَرَ الجَعلَ إجمالًا، فناسَبَ كلَّ سياقِ المُفردةُ الّتي وردَت فيه.

نوع الفاء ودلالتُها:

الإفـصـاح عن شرط مقدر

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فصيحة، فقد أفصحَت عن شرطٍ مُقدَّر؛ أي: إذا كانَت قصّةُ السّفينة آيةً فهل مِن مُدَّكِر؟[3].

غرض الاستفهام ودلالتُه:

الـتّـقـريـعُ لِـمَـن لـم يـتـعـظ، والـتّـحـضـيـض عـلـى الـتّـذكّـر والتّفكّر

الاستفهامُ في ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقريعيٌّ تحضيضيٌّ في آنٍ؛ تقريعيٌّ لِمَن سَمِعَ هذا الخبرَ العظيمَ ولم يتَّعظ، وتحضيضيٌّ يحثُّ على التَّذكُّر والتَّفكُّر[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 107.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 186.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 322، وصافي، الجدول: 14/ 70.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 187.

معنى ﴿مِن﴾، ودلالتُها:

التّأكيد على عموم الجنس

﴿مِن﴾ في حيز الاستفهام الإنكاريّ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ للتّأكيد على عموم الجنس، فالمراد كلُّ مَن سَمِعَ الآيةَ ليَعتبرَ بها ويتَّعظَ بدلالتها.

دلالة صيغة (الافتعال):

مَن أراد الهِدايةَ وتحصيلَ الحقِّ فعليه بالاجتهاد

جاء اختيارُ صيغة ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ على وزن (مُفتعِل)؛ للدّلالة على الاجتهاد في التَّذكُّر، فالأمرُ يحتاج إلى إعمال عقلٍ وتأمُّلٍ وجَهدٍ، وليس مُجرَّدَ سماعٍ عابرٍ[1]، وهو المقصودُ بالاستفهام التّحضيضيّ، فإنَّ الاستجابةَ لإرشادات الوحي يحتاج إلى عقلٍ واعٍ، وقلبٍ صافٍ، ونيّةٍ صادقةٍ، واجتماعُها ليس بالأمر الهيِّن، فالآيةُ تُرشِدُ العبادَ بطريق الإيماء إلى ضرورة الاجتهاد لتحصيل الاعتبار والاتّعاظ.

غرض تنكير لفظ ﴿مُّدَّكِرٍ﴾:

عمومُ الخطاب لكلّ مكلّفٍ قادرٍ على النّظر والفكر

نُكِّرَ لفظ ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ لِموقِع ﴿مِن﴾؛ ولِعموم الخطاب وشمولِه، فيَعمُّ كلَّ مُكلَّفٍ قادرٍ على الاجتهاد وبلوغ الحقِّ بالنّظر والفكر.

نوع الفاء ودلالتُها:

تفريعُ التّعيين والبيان على المفهوم في جملة الكلام

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تفريعٌ على القصّة السّابقة الّتي شملَت إنزالَ الطّوفانِ، ونجاةَ نوحٍ، وهلاكَ المُكذِّبين، كأنّه قيل: بعد أن عرفتَ ما حلَّ بهم، فانظُرْ وتأمَّلْ! كيف كان عذابي لِمَن كذَّبَ نُذُري[2]، والتّفريعُ هنا تفريعُ تعيين، وبيانٍ لمفهوم الآية الموجزَةِ لحَدَثِ الطّوفان.

غرضُ الاستفهام بـ(كيف):

التّهويل والتّعجيب من شدّة العذاب والنّذارة

غرض الاستفهام بـ(كيف) في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 187.

﴿وَنُذُرِ﴾ التّعجيب والتّهويل من شدّة العذاب؛ أي: ما أفظعَه وما أشدَّه! فليس المَقصودُ طلبَ العلم، بل إثارةَ الفزع والتّنبيه[1].

نُكْتَةُ ذكرِ فعل ﴿كَانَ﴾:

آثر النّظمُ الكريم ذكرَ فعل ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ لإفادة تحقُّقِ الوجودِ في الماضي[2]، فالعذابُ والنُّذُرُ ليس مُجرَّدَ احتمالٍ أو تهويلٍ أو تحذيرٍ، بل واقعٌ قد تحقَّقَ بالفعل. وهذا يُضفي صفةَ الثّبات واليقين على ما يُحكى، فيستدعي ذلك في السّامِعين وجوبَ الالتفات للنُّذُر، فهو خطابٌ استمراريٌّ لجميع العباد كي يَعتبروا ممّا حصل لقوم نوحٍ عليه السلام.

آيـاتُ الاعتـبار مُتحقِّقةُ الوقوع فـي الآذان، مُستمرَّةُ الاعتبار في الأذهان

نوع الإضافة ودلالتُها:

إضافةُ لفظ العذاب إلى ضمير المُتكلِّم في قوله تعالى: ﴿عَذَابِي﴾؛ لتعظيم العذاب وتفخيم شأنه، والإضافة بمعنى (من)؛ أي: عذابٌ صادرٌ مِنَ الجبّار، الّذي لا يَقدِرُ أحدٌ على دفعِه.

تعظيم العذاب وتفخيم شأنه

دلالة جمع ﴿نُذُرِ﴾ وحذف الياء:

آثر النّظمُ الكريم جمعَ ﴿نُذُرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ دون الإفراد (نَذيري)؛ إشارةً إلى تكرُّر الإنذار وتنوّع أساليبِه، ومع ذلك لم يَستجيبوا؛ وذلك لبيان الرّحمة الإلهيّة، وحُذِفَ ياءُ المُتكلِّم من (نُذُرِ)، وأصلُهُ: نُذُري. وحَذفُها في الكلام في الوَقف فصيحٌ، وكَثُرَ في القرآن عند الفَواصل[3].

رحـمـةُ الـلـه مُتكرِّرةُ النّزولِ، بـخـلاف عـذابِـه فهو واحد

بلاغة التّذييل:

جملة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ واقعةٌ في مَوقِع التّذييل كتذكيرٍ ختاميٍّ وتعليقٍ على القصّة، ليُربَطَ بها الواقعُ الحاليّ

الاعـتـبـار مـن قِـصـص السّابقين مَنهجُ الـعـقـلاء مِـنَ المؤمنين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 187.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 187.

للمُشركين في عهد النّبيّ ﷺ ، فهي وعيدٌ وتخويفٌ بأنّ العذابَ ليس مَوقوفًا على قوم نوحٍ، بل سنّة ماضية لِمَن كَذَّبَ النُّذُرَ. فالآية تهزُّ القلوبَ، وتوقِظُ الغافِلين، وتَحمِلُ في طيّها تهديدًا بوقوعٍ مثله لِمَن سار على درب المُكذِّبين.

دلالة جملة القَسَم:

الـقـرآن طريق واضح لكلِّ مَن أراد الهِداية

جملة ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ جملةٌ قَسَميَّةٌ[1]، افتتحَت بـ﴿وَلَقَدۡ﴾ للتّوكيد، وفيها معنى القَسَم المَحذوف؛ أي: واللّه لقد يسَّرنا...، وهذا يدلُّ على عظيم العناية الإلهيّة بتبليغ القرآن، وجَعْلِه سهلًا مَيسورًا للاتّعاظ.

نُكْتَةُ تَكرارِ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ عقب كلِّ قصّة:

اشـتـمـال قصص القرآن عـلى أسـبـاب التّيسير اللّفظيّ والمَعنويّ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ جاء ذِكرُهُ في نهاية كلِّ قصّة في هذه السّورة، والغَرضُ منه: التّقرير والتّأكيد على أنّ كلَّ قصّةٍ من قِصص الأقوام الماضية هي قرآنٌ يُتلى، فيه مِنَ الهِداية والإرشاد والاعتبار ما يكون كافيًا للإيمان والاستجابة للحقِّ، كما أنَّ كلَّ قصَّةٍ تشتمِلُ على نوعٍ مِنَ الذِّكر، ولونٍ مِنَ الاعتبار ما يكون مُستقلًّا عن غيرها في خصوصيّات، وإنِ اتّفقَ معها في عموميّات، فكلُّ قصّة تامَّة في مَضمونها الوعظيِّ، وهي قادرةٌ وحدَها على إيقاظ الغافِلين، لكنّ النّاسَ ما زالوا على إعراضهم، فجيء بهذه الجملة مرارًا لتعميق الشّعور بالحَسرة والتّحذير. وفي تكرار الجملة أعقابَ كلِّ قصّة تنبيهٌ على قضيّة التّيسير بالبيان واللّغة. والتّيسير هنا تيسيرٌ لفظيٌّ، ومَعنويٌّ بالعِبَر والأمثال والقِصص، ففيه ردٌّ على مَن يَزعمُ أنّ القرآنَ غامِضٌ أو عَسيرٌ، بل فيه كلُّ وسائل البيان والتّأثير. ولا يخفى ما في هذا التّذييل المَكرور من جمال الإيقاع،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 83.

فالتَّكرارُ نفسُه أسلوبيًّا يُؤسِسُ إيقاعًا مُتدرِّجًا مُتناميًا يَثبت في السَّمع والقلب، ويَتماشى مع مَقصِد السّورة: الإنذار، والتّذكير، والتّهديد بالمصير[1].

نُكْتَةُ تكرارِ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾:

تقريعُ العقول بتأمُّل المَنقول لتحقيق الحقِّ فيما جاء به كتابُ الحقِّ

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ جاء بعد قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾، ثمّ جاء بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ تعقيبًا على قصص السّورة، ففي السّياق الأوّل: جاءَت هذه الجملة بعد ذكر غرقِ قومِ نوحٍ ونجاةِ نوحٍ بالسّفينة، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾؛ أي: أبقيناها دليلًا باقيًا في الأرض، إمّا السّفينةُ نفسها، وإمّا قصّتها في التّاريخ والقرآن[2]. والوظيفةُ البلاغيّةُ هنا للجملة أنّها بمثابة تعجُّبٍ إنكاريٍّ توبيخيٍّ: كيف تبقى الآيةُ قائمةً ظاهِرةً، ومع ذلك لا يَعتبِرُ أحدٌ؟ والمُعاتَبةُ هنا مُتعلِّقةٌ ببقاء الأثر الحِسّيّ أو التّاريخيّ وعدم الاعتبار به. وفي السّياق الثّاني: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تأتي بعدَ نهاية كلِّ قصّةٍ (عاد، ثمود، قوم لوط)، حيثُ يُبرِزُ فيها تيسيرَ القرآن للاتّعاظ، بدلًا من بقاء آثارٍ حِسّيّة كما في قصّة نوحٍ. فالوظيفةُ البلاغيّةُ لجملة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ حينَئذٍ أنّها بمَثابة تقريعٍ جديدٍ، لكنّه أشدُّ حُجَّةً؛ لأنّه مُرتَبطٌ الآن ببيان اللّه نفسِهِ في القرآن، لا بآثارٍ ماضيةٍ. فالآيةُ الكُبرى الآنَ ليستِ السّفنَ ولا الرّياحَ ولا الصّواعقَ، بل القرآنُ ذاتُه، وفيه إلزامٌ عقليٌّ ووجدانيٌّ أقوى وآكَد[3].

بلاغة الاستعارة المَكنيّة في لفظ ﴿يَسَّرْنَا﴾:

الهداية لا تُنال إلّا بالسّعي إليها بجِدٍّ وإخلاص

في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ شبّهَ سرعةَ حصولِ التَّذكُّر عند سماع القرآن، وسهولةَ الانتفاع به، بمَنفعةٍ جاهزةٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 83.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 165، وابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 272.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 190.

ومُيسَّرةٍ لطالبها، فيكون التّيسيرُ استعارةً مَكنيّةً؛ لأنّ الذِّكرَ ليس مالًا ولا مَتاعًا مادّيًّا، بل شُبِّهَ بمَتاعٍ مُيسَّرٍ للآخذ، وفي لفظ ﴿يَسَّرْنَا﴾ تخييلٌ يَرْسُمُ في الذّهن صورةً مَحسوسةً لمعنًى مَعقولٍ، فقوله سبحانه: ﴿يَسَّرْنَا﴾ يُؤذِن بصورة من تيسير المَتاع، وتقريب الطُّرق، وتذليل العَقباتِ، فيتخيل السّامِعُ كأنّ القرآنَ شيءٌ مادّيٌّ قد ذُلِّلَت طرقُ الوصول إليه[1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 190.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"